رحـــــــلات أنور

- ١١ -

مع الاسد فى كينيا

سَأَلَ أَنْوَرُ : « أَيْنَ نحنُ ؟ »

فَأَجَابَ الْأَسَدُ : « نحنُ فى كِينَا ، وهى واقعةٌ فى شرقِ إفريقيةَ . »

أَنورُ : « وهل هـذا وَطَنكَ الذى أنتَ فيه مَلِكُ الحيواناتِ ؟ »

الْأَسَدُ : « أَنا مَلِكُ الحيوانِ دائمًا حَيْثُمَا أَكُونُ » . قالَ ذلك ، وَرَفَعَ رَأْسَهُ الجميلَ إلى أَعْلَى ، وهَزَّ مِعْرَفَتَهُ ، وبَدَا كَأَنَّهُ مَلِكٌ حقيقةً . ولقد كانَ سرورُ الأَسَدِ عظيما برجوعِهِ إلى وطَنِهِ ، حَتَّى لقد كان يُهَنِّئُهُ كما يُهَنِّئُ القطُّ ، ولـكنْ بصوتٍ أعْلَى كثيراً .

وَوَجَدَ أَنورُ نَفْسَهُ فى فَضَاءٍ مُغَطًّى بالحشائشِ العاليةِ . وكانَتْ فيه أشجارٌ قليلةٌ صغيرةٌ هُنَا وهناكَ ، لا يَزِيدُ ارْتِفَاعُها عَلَى قَامَةِ الرَّجُلِ ، وَيَخْتَبِئُ فيها كثيرٌ من أنواعِ الحيوانِ التى تَعيشُ على الحشيشِ كالغَزَالِ والحمـــارِ الوحْشِيِّ . ولم يَكُنْ رَأْسُ أَنورَ ظاهراً من فوقِ الحشيشِ لِيَرَى تلك الحيواناتِ . وَلـكنَّ زُرَافَةً أَطَلَّتْ عليه مِنْ عَلِ ، ثمَّ أَطْلَقَتْ ساقَيْهَا للريحِ . وصارَتْ تَنْتَقِلُ من شجرةٍ لِأُخْرَى لِتَأْكُلَ أَوراقَهَا .

وقالَ الأسدُ لِأَنورَ : « والآنَ ، وَدَاعاً يا صديقِي ! وَلْتَعْلَمْ أَنَّكَ هنا فى مكانٍ تَعيشُ فيه قبائلُ تُسَمَّى قبائلَ « المساى » . وَلَسْتُ أَعْلَمُ ماسَيَكُونُ غِذاؤُكَ بينهم . فإنَّ هؤلاءِ القَوْمَ لا يَزْرَعُونَ شيئاً وليسَ عِندهم خبزٌ أو فاكهةٌ أو خُضَرٌ . فهم يَشْرَبُونَ اللَّبَنَ والدَّمَ ، وَيأْكلونَ اللحمَ الذى يَحْصُلُونَ عليه من مَوَاشيهم التى لا حَصْرَ لها . وكنتُ أَظُنُّ أَنَّهُمْ لا يَحْقِدُونَ عَلَيَّ إذا أَخَذْتُ واحدةً أو اثْنَتَيْنِ منها لأَتَغَذَّى بها ، كلَّمَا شَعَرْتُ بالجوعِ . ولـكن الغريبَ أَنَّهُمْ يَغْضَبُونَ لذلك أَشَدَّ الغَضَبِ ، ويَدْفَعُهُمْ هذا إلى مُحَاوَلَةِ صَيْدِى بالحِرَابِ . »

فَقَالَ أَنْوَرُ : « إِنَّهُ لَيَسُوءُنِى جِدًّا أَنْ يَمَسَّكَ أَىُّ سوءٍ . ولذلك أَسْتَوْدِعُكَ اللهَ ! »

ووَقَفَ الأَسَدُ عَلَى رِجْلَيْهِ الْخَلْفِيَّتَيْنِ ، وَمَسَحَ دَمْعَةً نَزَلَتْ من عَيْنِهِ الْيُسْرَى بِكَفِّهِ الأَيْسَرِ . ومَدَّ كَفَّهُ

الأيمن ، ليُسَلِّمَ عَلَى أَنْوَرَ ، وكَانَتْ كَفُّهُ تُشْبِهُ كَفَّ القِطِّ . وأَدْخَلَ مَخَالِبَهُ فى أَغْمَادِهَا ، حَتَّى لا يَخْدِشَ يَدَ صَدِيقِهِ الذى أَرْجَعَهُ إِلَى وطَنِهِ . ثُمَّ قَفَزَ إِلَى الحَشَائِشِ ، واخْتَفَى بَيْنَ الأَشْجَارِ والأَعْشَابِ التى كَانَ لَوْنُهَا يُشَابِهُ لَوْنَهُ كثيرا .

أَمَّا أَنور ، فإِنَّهُ وَاصَلَ سَيْرَهُ بَيْنَ الحَشَائِشِ إِلَى أَنْ وَصَلَ إِلَى قَرْيَةٍ . وكَانَ حَوْلَ القَرْيَةِ سُورٌ عالٍ من الأَشْجَارِ ذاتِ الشَّوْكِ ، لِتَمْنَعَ الوحوشَ من الوصولِ إِليها ليلا . وافْتَحَمَ السُّورَ إِلى الدَّاخِلِ ، فَغَاصَتْ قَدَمَاهُ فى وَحْلٍ قَذِرٍ ، كَانَتْ تَنْبَعِثُ منه رائحةٌ كريهةٌ جدًّا ، جَعَلَتْهُ شَدِيدَ الاشْمِئْزَازِ . ولَمْ يَكُنِ الفضاءُ الواقعُ داخِلَ السُّورِ سِوَى حَظِيرَةِ المواشِى .

كوخ من أكواخ كيبا

وفى وسَطِ ذلك المكانِ الشديدِ القَذَارَةِ ، كَانَتْ حَلْقَةٌ من الأَكواخِ ، لا تَزِيدُ فى ارْتِفَاعِهَا كثيراً عَلَى مِتْرٍ . وهى مصنوعةٌ من عِصِىٍّ فَوْقَهَا طَبَقَةٌ من الطِّينِ . وتَقَدَّمَ أَنورُ لِيَدْخُلَ أَحَدَ الأَكواخِ ، فَوَجَدَ البابَ مُنْخَفِضًا جدًّا ، حتى اضْطُرَّ لأَنْ يَزْحَفَ كَىْ يَتَمَكَّنَ من الدُّخُولِ . وكَانَ داخِلَ الكوخِ مُظْلِمًا لعدمِ وجودِ نوافِذَ فى جُدْرَانِهِ ، وإِنَّمَا كَانَ يَدْخُلُهُ ضَوْءٌ ضعيفٌ ، من خِلَالِ البابِ ومن ثُقُوبٍ قَلِيلَةٍ فى السَّقْفِ والجُدْرَانِ . وعَلَى ذلك الضَّوءِ الضعيفِ رَأَى أَنورُ فِرَاشًا من الحَشِيشِ وبِضْعَ أَوانٍ من الحديدِ وقدورٍ من الفَخَّارِ . وفى وَسَطِ الكوخِ مَوْقِدٌ مَكَوَّنٌ من كُومَةٍ من الأَحجارِ . وكَانَ الكُوخُ مُمْلُوءًا بالذُّبابِ والرَّوَائِحِ الكريهةِ . ولَمْ يُطِقْ أَنور عَلَى ذلك صَبْرًا ، فَخَرَجَ مُسْرِعًا .

ولَمَّا جَاوَزَ بَابَ السُّورِ وَجَدَ فى الجانبِ الآخَرِ بَعْضَ الأَولادِ من قَبِيلَةِ « المساى » يَلْعَبُونَ ، فاشْتَرَكَ معهم كَمَادَتِهِ . وبَدَءُوا اللَّعِبَ بِحِرَابٍ صغيرةٍ متظاهرين بأَنَّهُمْ يَصْطَادُونَ السِّبَاعَ . ثُمَّ صَنَعُوا قَرْيَةً من الرِّمالِ ، ووَضَعُوا بداخِلِهَا حَصًى لِيَقُومَ مَقَامَ المواشِى .

وأَخِيرًا وَجَدُوا بَقَرَةً عجوزًا وَدِيعَةً ، فَقَالُوا : « لِتَكُنْ هذه البقرةُ كُوخًا . » ووَقَفَ أَحَدُ الأَطفالِ بِجَانِبِهَا ، بَيْنَمَا اخْتَبَأَ الآخَرُونَ فى الأَعشابِ . وبَعْدَ قَلِيلٍ خَرَجُوا من الأَعشابِ زَاحِفِينَ كَأَنَّهُمْ أَعْدَاءٌ يُرِيدُونَ الاسْتِيلاءَ عَلَى الكُوخِ . وكَانَ عَلَى الوَلَدِ الواقفِ بِجَانِبِ البقرةِ أَنْ يُدَافِعَ عن الكُوخِ ، ويَمْنَعَ الآخَرِينَ من الاقْتِرَابِ منه . وبَيْنَمَا هُمْ يَلْعَبُونَ كذلك ، تَحَرَّكَتِ البقرةُ ، فَصَاحَ أَنورُ : « إِنَّ هذا كُوخٌ مُضْحِكٌ ! ! إِنَّهُ يَتَحَرَّكُ ، ويَبْتَعِدُ عَنَّا ! ! »

فَرَدَّ عليه أَحَدُ الأولادِ : « نَعَمْ وأَكواخُنَا أيضا تَتَحَرَّكُ مثلَ هذا الكُوخِ تماما ، لأَنَّنَا لا نَعِيشُ طويلا فى مكانٍ واحدٍ ، بَلْ نحن مُضْطَرُّونَ للرحيلِ عند ما تَكُونُ المواشِي قد استَهْلَكَتْ كُلَّ ما حَوْلَنَا من الحشائشِ . وبما أَنَّنَا نَعِيشُ عَلَى مواشِينا ، فكلَّما أَكَلَتْ هذه المواشِي الحشيشَ الموجودَ فى بُقْعَةٍ هَـَمْنَا أَكواخَنَا وَرَحَلْنَا بها ، ثمَّ بَنَيْنَا أَكواخا أُخْرَى فى مكانٍ يُوجَدُ به حَشِيشٌ كثيرٌ . »

فقال أنور : « لاشَكَّ أَنَّ والِدَكُمْ يتعبُ كثيرا إذا كانَ عليه أَنْ يَبْنِيَ مَنْزِلاً جديداً مَرَّتَيْنِ أو ثلاثَ مَرَّاتٍ كُلَّ سنةٍ »

فَضَحِكَ الأطفالُ ، وصاحُوا : « والدُنا ؟ إنَّ والِدَنا لا يَبْنِي منازلَ ، بل أُمَّنَا هى التى تَقُومُ بذلك . عَلَى أَنَّ بِناءَ المنزلِ لَيْسَ شَـــاقًّا ، كما تَتَوَهَّمُ . فإنَّ أُمَّنَا تَحْفِرُ فى الأرضِ حُفْرَةً مستديرةً ، ثمَّ تُثَبِّتُ بَعْضَ القوائمِ عَلَى حافَةِ الحُفْرَةِ . ثمَّ تَرْبُطُ هذه القوائمَ بَعْضَها بِبَعْضٍ ، وبعدَ ذلك تُغَطِّيهَا بالحشيشِ ، ثم تُغَطِّى كلَّ هذا بالطِّينِ . » ثمَّ عاد الأطفالُ يَقُولون : « مَا أَغْرَبَ أَفْكارَكَ ! ! وَالِدُنَا يَبْنِي بَيْتاً ! ! »

أنورُ : « أَلاَ يَعْمَلُ شيئاً مطلقاً إذَنْ ؟ » فأجابهُ الأطفالُ : « إنَّهُ يُمْنَى بالماشيةِ ، وَيَقِفُ هنا وَهُناكَ ، وَيَتَكَلَّمُ أو يَتَوَكَّأُ عَلَى حَرْبَتِهِ ، ويَتَكَلَّمُ ! ويَصِيدُ أيضاً ، وهو صيادٌ ماهرٌ ، ويستطيعُ أن يُوَاجِهَ أَسَداً فى الخَلاءِ وَلَيْسَ فى يَدِهِ إلاَّ حَرْبَتُهُ ! »

وعند ذلك مَرَّ بالأطفالِ رَجُلٌ طويلُ القامةِ ، قَوِيُّ الجسمِ ، فَصَاحُوا : « بَابَا ! بَابَا ! ! هُنَا ولَدٌ أَبْيَضُ يُرِيدُ أَنْ يَرَاكَ ! أَرِهِ حَرْبَتَكَ ! ! »

وَكَانَ شَعْرُ الرَّجُلِ خَشِناً ، وعليه دُهْنٌ وَطِينٌ أَحْمَرُ . وَكُلُّ ما عَلَيْهِ من الملابسِ لا يَزِيدُ على مترٍ من النَّسِيجِ القُطْنِيِّ الأَبْيَضِ (البفتة) وَحَوْلَ وَسَطِهِ حِزامٌ مُعَلَّقٌ بِهِ سِكِّينٌ طويلٌ . وكانَ يَحْمِلُ فى يَدِهِ اليُسْرَى دِرْعاً من الجِلْدِ يَزِيدُ ارتفاعُهُ عَلَى متر . أَمَّا يَدُهُ اليُمْنَى فكان يَحْمِلُ فيها حربَتَهُ التى

وكان الرجل يحمل فى يده اليسرى درعا من الجلد وفى يده اليمنى حربة

يَصْطَادُ بها . ويَبْلُغُ طولُ سِنِّها متراً تقريباً .

وَأَرَادَ الوالدُ أَنْ يُدْخِلَ السُّرُورَ عَلَى قَلْبِ أنورَ ،

فلوّحَ بالحربةِ والدّرعِ فى الهواء، وصرخَ صرخةً مُريعةً اضطربَ من هولِها أنورُ المِسكينُ وتراجعَ إلى الوراء فعثرتْ قدمُهُ فى حجرٍ، فوقعَ، واصطدمَ بإحدى النِّساء، وكانتْ راجعةً إلى الكوخِ، تحملُ بعضَ الأخشاب. ولمّا رأتْهُ يهوى إلى الأرضِ، رمتِ الخشبَ، وساعدتْهُ على النُّهوضِ. ولمّا تأملَها أنورُ لحظَ أنّ شعرَها محلوقٌ بالموسى. ولقدْ رأى أنورُ «الإسكيمو؟» فى ملابسَ من جلودِ عجلِ البحرِ، وأهلَ لابلاندةَ فى ملابسَ من جلدِ الوعلِ، والعربَ فى عباءاتٍ من القطنِ، وزنوجَ أستراليا، وهم يسيرونَ عُراةً لا يستُرُ جسمَهم شىءٌ ما.

وكانت المرأة تلبس أسلاكا حول ذراعيها وساقيها وعنقها

ولكنّهُ لم يرَ أطرفَ، ولا أعجبَ من لباسِ هذه المرأةِ، إذا صحَّ أنْ يُسمّى ذلك لباساً!! فكانتِ المرأةُ تلبسُ أسلاكاً حولَ ذراعيها وساقيها وبقيقةً هائلةً من الأسلاكِ حولَ عُنقِها. وكانَ يتدلّى من بعضِ الأسلاكِ سلاسلُ من المعدنِ. ولمْ تكنْ تلبسُ غيرَ الأسلاكِ شيئاً سوى قميصٍ صغيرٍ من الجلدِ. وهى لا تخلعُ الأسلاكَ أبداً، حتّى عند النّومِ.

وبعدَ قليلٍ رأى أنورُ مئاتٍ من المواشى تندفعُ نحوَ بابِ السُّورِ، وهى تصيحُ، وتهزُّ ذيولَها. فانشغلَ الجميعُ بها. وعندئذٍ انتهزَ أنورُ هذه الفرصةَ وهربَ عائداً إلى السّفينةِ.

ولمّا وصلَ إليها، ورأى الحيواناتِ القليلةَ الباقيةَ فيها، قال لها: «لنْ يتيسّرَ سحبُ القرعةِ هذه المرّةَ، لأنّى فقدتُ طربوشى، وأنا هاربٌ من إحدى قُرى «للساى»!! ثمّ إنّهُ ليسَ عندى ورقٌ، ولا قلمُ رصاصٍ. ولما كانَ طعامُنا قد أوشكَ أنْ ينفدَ، فعندى فكرةٌ تُخرجُنا من هذه الورطةِ: وهى أن نذهبَ بالفيلِ أولاً إلى وطنِهِ، لأنّهُ أكثرُنا أكلاً.» فسُرَّ الفيلُ، ولوّحَ بخرطومِهِ فى الهواء، وصاحَ: «هذا بديعٌ جدّاً!! فاذهبوا إذن، وناموا، وسأقودُ السفينةَ بنفسى!» فخيّاهُمْ أنورُ، وذهبَ إلى مخدعِهِ، ولمْ يستيقظْ إلاّ على صوتِ الفيلِ، وهو يقرعُ البابَ، ويقولُ: «لقدْ وصلْنا!!»